"سهاد"

بقلم.. أسماء عبد الوهاب الخولاني /اليمن

كالعادة تتجمع بمنتصفِ حلقي كغصة، وللمرة الواحدة بعد الألف وأنا أبصقُ ذاكرتي باللونِ الأحمر. أبصقها على ورقٍ حكم عليهِ بالإعدامِ كتابةً حتى الموت، مع تحميلهُ معاناتي الماضية..

كلما طرقت ذاكرتي بابَ العودة؛ كلما طرقَ على رأسي ذنبَ العيشِ بهيئةِ سطرٌ مهمل، عنوانٌ مشبوه، وربما نفاياتٌ هزيلةُ المظهر..

سأتوقف على عتبةِ اللملمةِ النفسية.

هنا أعبر الدخول وأصل إلى ما بعد النهاية، إلى غايةِ الأحلام تحت البسيطة، سأتوقف عندما أصل إلى عمقِ التعفن بصيغة التعفف ـ الجوع آنذاك ـ وأنتهي بقولٍ سأم لفظهُ بين شفتي "أريد العيش."

جملةٌ ترديدها بين أكوامٍ من جثثٍ قيدَ الموت؛ تمامًا كالصراخِ في أذن أصم، فبأي منظور أطلب الحياةَ بحقِ الموتى! وأيَّ طريقٍ سيُعبد نفسهُ من أجلِ أموات!؟

كل ما حولي يدعوني للنفورِ عن المعايشة، عن الواقع المُبهر بالملحِ الخالص، الذي يصنع مني مجموعة بعثراتٍ متعثرة الخطى، أحدها في

صفِ المدرسة على كرسي قد يحسب نفسه مشؤوم الحظ؛ لأنني جلست عليه.

يوم ذاك وقفتُ على صوتِ الأستاذة، نادتني بنبرة أعرف أنها تخصني من بين الجميع

"سهاد اتبعيني"

تبعتها وكأنني ذاهبة إلى الموت بقدميّ، كنت أعلم ما الذي تريده، ولكنني وفي كلِ مرة كنت أوضع في هذا الموقف كان يتلبسني الارتجاف.

التفتتْ نحوي وبذات النبرة الخشنة والملامح المنقبضة قالت:

"سهاد، كم مرة أخبرتك لا تأتي إلى المدرسة بهذهِ الملابس الرثة! وكذلك دفترك، لا تجمعي دفتر الواجب والحصة معًا؛ هل تحاولين إغاظتي يا فتاة!؟"

صمتُ كالعادة؛ فأردفت

"لا أصدق أنتِ تتجاهليني الآن!

ألا يكفيك منظرك المخزي من بين الجميع!؟

هذا مستفز ومثير للشفقة"

"لن أعتذر كالعادة؛ فأنا لم أخطأ.

هل تعلمين ما هي الحياة التي أعيشها حتى تتعمدي جرحي في كلِ مرة؟

أستاذة أنا هنا لأتعلم، لا مظهري، ولا دفتري يمثلان مستواي."

لا أعلم من أين أتتني الشجاعة، لأحادثها بتلك الطريقة!

كل كلمةٍ مني أثارت في ملامحها الصدمة كما احتلتني الصدمة من نفسي أيضًا؛ إلا أنني كنت أرتجف من الداخل وتوقعت ما لا يُحمد عقباه، ولكنها فاجأتني بردها المرتبك الركيك

"سهاد عزيزتي لم أكن أقصد"

أمضيت اليوم بين فوضى من المشاعر، بين السعادةِ لأني عبرت عن شيءٍ بداخلي والألم أيضًا؛ فكم كنت أكره الحديث عن حياتي!

لم أكن أرغب بالتبرير عن بساطة لبسي أو مظهري بالعازة..

كنت وما زلت أكره الفقر حق الكره؛ فهو عدوي الأوحد؛ هو المجرم الذي قتل بداخل أخي معنى العائلة؛ ليهجرنا مُخلفًا ورائهِ أُمًا قعيدة، وأربعَ أخواتٍ تصفعهن أيادي الجوع، وأبًا ماتت روحهُ بغيابِ رجلهُ الوحيد، السند الذي لم يلحق حتى الاتكاء عليه.

مسكينٌ أبي أعتقد أن له جدارٌ يمكنه الاستناد عليه إذا ما غدرتهُ الأيام، ولكنهُ ويا للأسف كان مغدور من كلِ الجهات.. الحياة، والقدر، وابنه الذهبي - كما ظنه - كلهم غدروه من البداية..

منذُ كنتُ في السابعةِ وأنا أخشى خروج غرفتي ليلًا، أخشى رؤية أبي يجلس على السجادة، يبكي طالبًا المغفرةَ من الله.. وما زالت الذكرى الأولى لصوت أمي وهي تهمس لأبي الباكي:

"أرجوك يا همام دعنا نموت على أن ننام وفي بطوننا حرام، يا رجل كيف لنا أن نأكل من مالٍ مسروق"!

حينها فهمت السبب الذي يجعل الليل يمر وأبي ساجدٌ يطلبُ مغفرةَ كل يومٍ ننام فيه وبطوننا لا تأن جوعًا.

ذاك اليوم استمعتُ إلى ردِ أبي بعناية، وعندما سمعته يجيب أمي بخفوت

"أهون من رؤية أطفالي يموتون وأنا أنظر لهم، هذا أهون، أهون"

أردت أن أخبر أبي بالكثير كأن أقول لا بأس دع الموت ينهشنا مرةً، وعشرةَ ذلك أهون، أهون.. ومرت الأيام وأبي يبكي ويرجو من الله العفو.

تمنيت أن أسمعهُ يطلب الرزق أيضًا، ألا يعلم بأن صاحب المغفرة هو ذاته صاحب الرزق!

ربما لو أن أبي لم يسرق خشيةَ موتنا، لو التجأ إلى الله الرازق لما عشتُ ذاك الحين، والذي تعصف مشاهدهُ الآن أمامي!

"أبي أرجوك أنا لا أريد، ما زالت صغيرة، ماذا عن دراستي؟"

أمسك كلتا يدي وهيئت أذناي صوتهُ الحنون كصوتِ وحشٍ يحملني ذنبَ حياتهِ وحياة عائلته.

"سهاد قلب والدك، ترغبين بموت أخيك وموتنا!؟ جميعنا سنموت إذا لم تتزوجيه، صدقيني إذا تزوجتِ به سيتغير الكثير الكثير"

غالبًا اسمي "سهاد" يذكر قبل الحديث المرجو من كلِ شخصٍ يحادثني، وكأنهم يذكروني بدور السهاد في حياتي، وحياة كُلًا منهم، السهاد الذي أخذ نصف أعمارنا إما جوعًا، أو تفكريًا، وحتى سجودًا، وبكاءً...

"هناك فرح، لجين، قزوين، لم أنا؟"

تساءلت وانا أنظر للجمع الصامت حولي، حتى مالك أخي الذي عادةً ما يهدنا بصوته وصراخه، صامت أيضًا!

هل لأنه عاد عودةً عاصفة، مدمرةً لشخصي بالأحرى!؟

حدثتهُ قائلة:

"خمسةَ عشر عامًا، عمري خمسةَ عشر، لم أجدك عندما كبرت، لم أكن أعرفك إلا في دعاءِ أمي المكلوم بغيابك، في صوتها المبحوح وهي تدعي أن تكون بخير. أتعلم ما الذي كنت أفعله عندما تحتضن أمي صورتك وتنتحب!؟

كنت أنغمس بين ذراعيها علها تدرك أن أربع فتيات بحاجةٍ لهذا الحضن أيضًا، حضنها البارد بفقدها إياك. أين كنت عندما شربنا الماء بكمياتٍ جعلتنا نتقيأ؛ كي لا نسمع الجوع؟

كيف أمكنك ترك الذي رأى في عينيكِ رجلًا سيقوم به؟ أبي الذي ظن أن الحياة لن تكون إلا بك، وأن الرزق لن يأتي إلينا إلا عن طريقك، ولكن ماذا فعلت؟

كنت أول العثرات عندما هربت بمال أبيك، وأخذت معك مصير أسرةً بأكملها..

عشنا مركونين على بابِ الضياع، وكنتَ تجمع المزيدَ من المصائب لتعود لنا بها اليوم، وماذا أتزوج بمن تدينت منه!؟ ما ذنبي لتأخذ بخطيئتك!؟"

ظننت أنني أصبحت خطيبةً على منبرِ من الجروح، واعتقدت أن محاضرتي التي انتهت بجعل الوجوه مخضبة بالدموع، ستفي بعتقي من هذا الزواج. كنت أنتظر إجابة، إلا أنهم انسحبوا واحد تلو الآخر، وتفرد الجو بأنفاسي وشهقاتي.

"وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"

كنت أتساءل ولا إجابة تسكت صوتي الداخلي الذي يردد الآية... وكانت البداية لإصابتي بطنين الأصوات، صوت القهر، صدى التهاليل لعرسي، صوت تلك الجملة التي تمنيتها أن تتحقق "أريد العيش."

على مسامعي الكثير عدا اسمه كانوا يقولون "العريس".

لم أكن أعلم أن لنا أقارب، هل كنا منعزلون، أم أنَّا كنا منفيون!؟

لم يعد هناك صمت، وخلال أسبوع تغير بيتنا، أثاثٌ جديد، أناسٌ جدد، وأحياءٌ جدد، وموتٌ وحيد ألا وهو موتي، كل هذا ذكرني بقول أبي:

"سيتغير الكثير الكثير" كان متأكد من ذلك.

كُفنتُ بالأبيض وحُملتُ لنعشِ الزواج، ومن يومها وأنا أعيشُ في الأبيض..

لن أنسَ الصورة التي التقطها لي "العريس" بعد ثمانيةِ أشهر من زواجنا، صورةٌ تثبت أن السهاد تركني في شهري الخامس من الحمل، تركني بين أحضانِ الأبيض وطنين الأجهزة، كانت صورةٌ مثالية تحوي جسدي الطفل المستلقي على سرير الموت، وهو يحمل بداخلهِ طفل.

عندما استيقظتُ من سباتي الذي دام لأربعة أشهر بسبب حملي بسنٍ مبكر، كان قد تغير أكثر من الكثير: مثل هروبِ مالك للمرةِ الثانية؛ إلا أن هروبهُ هذهِ المرة باهض وكان الثمن موت والدي...

تغير كل شيءٍ عدا السهاد، وأضيفت أصواتٌ جديدة لحياتي، وهي أصوات أطفالي.

لا أعرف سبب فتحي للبابِ المؤدي إلى رواقِ الماضي، ولكن الذي أعرفهُ حق المعرفة هو أن الماضي يعيش معي، وأن من زارهُ الفقرُ يومًا لن ينسهُ السهاد عمرًا.. وها أنا اليوم بعد ثلاثة عشر عامًا، بعمر الثامنة والعشرين أتوقف على صوت موتي:

"سهاد، كفاكِ سهر"

وما زال اسمي يذكر قبل الحديث، لربما بمولدي بدأ السهاد في حياتنا، ألهذا أسماني أبي سهاد!؟... أجبت موتي، وحياة عائلتي، قاتل فقرنا، العريس (زوجي) الذي وهبني ثلاثة أطفال، وربما بعض الحنان

"آتية"